المدرسة كما يريدها الأطفال

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج 16 أكتوبر 2016

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

في يونيو 2015 أصدر الباحثين كاثرين بيرك وإيان جروفنور كتاباً أطلقا عليه اسم (المدرسة كما نريدها – تصورات الأطفال عن تعليم يواكب المستقبل)، والكتاب محاولة للاستشفاف آراء أطفال المدارس البريطانية حول عدد من الموضوعات التي تم طرحها من خلال مسابقة أطلقتها جريدة "الجارديان" البريطانية عام 2001 بعنوان "المدرسة كما نريدها"، والتي طرحت فيها أسئلة تبدو طبيعية ومنطقية للغاية في مطلع القرن الجديد، تدعو به الأطفال في عمر المدرسة أن يقدموا آرائهم وتصوراتهم لتغيير حال التعليم والمدارس إلى الأفضل.

وبعد المسابقة أعدت الجريدة من الأفكار التي تلقتها وبمساعدة الأطفال ما أطلقت عليه "بيان الأطفال" بهدف توثيق المقومات الأساسية للمدرسة النموذجية التي يريدها الأطفال، على أمل أن تنصت المدارس لآراء وأصوات الأطفال وتضع أفكارهم حيز التنفيذ، وكان من أبرز تلك الأفكار:

- **النشاط: أن توجد في المدرسة أنشطة رياضية مختلفة، وملعب كبير يضم أماكن للتسلق وبيوتًا فوق الأشجار ليفهم الطفل الطبيعة من خلال وجوده فيها واحتكاكهم المباشر بها.**

- **الهدوء: أن توجد في المدرسة غرفة للاسترخاء، مع استخدام الموسيقى بدلاً من الأجراس، وتوفير مكان هادئ للقراءة والرسم وممارسة ألعاب الطاولة.**
- **الإبداع والحيوية: أن يوجد في المدرسة كثير من المساحات لممارسة الفنون وعرض الأعمال الفنية، وأن تُكسى جدران قاعات الدراسة بالألوان والنقوش.**
- **الخبرة: أن يتمتع المعلمون بمعرفة عميقة للمواد التي يدرسونها للتلاميذ.**
- **الألفة: أن يتحدث المعلمون بهدوء دون صياح أو انفعال، مع وجود فريق خاص من المرشدين الاجتماعيين يمكن للتلاميذ اللجوء إليهم للتحدث عن أي شيء يشغلهم.**
- **الشمولية: أن تضم المدرسة تلاميذ لهم إنجازات مختلفة، ويملكون قدرات متنوعة، ويتمتعون بثقافات متعددة، ليجتمعوا ويدرسوا معًا.**

وقدمت مسابقة "المدرسة كما نريدها" عشرات الأفكار في الأمور السابقة الذكر، ربما يصعب تنفيذها كلها، أو حتى التفكير فيها، إلا أن هذا لا يعني أبدًا أن لا يُنظر في تلك الأفكار التي طرحت وخاصة أن بعضها يعتبر من الأمور التي يعاني منها الأطفال في المدارس، ودعونا ننظر إلى بعض من تلك الأطروحات الجميلة التي خرجت منها المسابقة.

<u>أولاً: المباني</u>: خرجت المسابقة بمئات النماذج، ومئات الخطط، وآلاف التصميمات للأماكن المثالية للتعلم، تعالج كلها أفكار التصميم تلك ما

هو أبعد وأشمل من مجرد شكل المباني وتنسيق المساحات والفراغات، لأنها ببساطة تقدم رؤية كاملة لتعليم مثالي للأطفال يتخطى الآليات التقليدية للبناء، كما طرحت هذه الخطط والنماذج المقدمة في المسابقة أشكالاً جديدة لمباني المدرسة، اشتملت في أغلبها على القباب، والهياكل الهرمية، والمساحات الدائرية، والكثير من الزجاج.

وتعتبر الحمامات أيضًا واحدة من المشكلات الكريهة في مدارس كثيرة، وقد اقترح العديد من الأطفال أساليب عملية لتحسينها، ولكن غالبيتهم أرادوا أن تكون ذات طابع منزلي، وأكثر راحة، وأسهل في الاستخدام. ويرى الأطفال أن عدم وجود مزلاق مثلاً بباب الحمام لإغلاقها بأمان في أثناء وجودهم أمر مثير للتوتر، علاوة على أن انخفاض مستوى النظافة يجعلهم غير راغبين في استخدام الحمامات، وبالتالي يعانون من شعور بعدم الارتياح منذ الظهيرة وحتى نهاية اليوم الدراسي.

ثانيًا: أماكن تناول الطعام: وجدت المسابقة أن هناك اتساق بين رؤية الأطفال التي تؤكد على أهمية وجود مناطق مستقلة مخصصة للأكل، مماثلة لتلك الموجودة في أماكن عمل الكبار، حيث يعاني الأطفال والمعلمون على حد سواء في حالات كثيرة من عدم وجود أماكن بالمدرسة مخصصة لتناول الطعام بانتظام. والمشكلة هو أنه مع غياب وجبة المدرسة في الوقت الحالي – والتي كانت تعد عنصرًا رئيسيًا في السياسة التعليمية والاجتماعية – تعتبر فرص الإنصات بتمعن لآراء

الأطفال – فيما يتعلق بتخصيص مساحات للأكل والتواصل الاجتماعي فيما بينهم – شبه معدومة.

ثالثًا: التعلم واكتساب المعارف: يتعامل الأطفال والشباب اليافعون مع المناهج الدراسية باعتبارها قاصرة وغير مرنة، وتقيد فرصهم في استقاء المعارف واكتساب المهارات بشكل فعال عند الخروج لاحقًا إلى الحياة العملية، وهم متلهفون وحريصون على الاستكشاف وإضافة أمور جديدة إلى المعارف والخبرات البشرية بدلاً من مجرد تعلم المواد الجافة والعقيمة المقدمة لهم، وعلى الأرجح يدعمون فرضية الفيلسوف وعالم الرياضيات "ألفريد وايتهيد" التي طرحها في بداية القرن العشرين حين قال "يحتاج التعليم الناجح من وقت إلى آخر بعض التجديد في المعارف المقدمة للتلاميذ".

وكذلك فإن الأطفال – التلاميذ الأصغر سنًا – غير مقتنعين أن المناهج الأكاديمية التي تعتمد على أحدث التقنيات ستزودهم وحدها بكل ما يحتاجونه للحياة في القرن الحادي والعشرين، فهم ينظرون إلى أنفسهم كمواطنين عالميين قادرين على بناء مستقبل باهر في أي جزء من العالم، وبالتالي يحتاجون إلى اكتساب خبرات ثقافية وحياتية إلى جانب التعليم الأكاديمي لإثراء معارفهم، وهم على وعي كبير بأهمية فكرة التنوع بين الناس وثقافاتهم وثراء وعمق تاريخهم، لكن مثل الأجيال السابقة، يعرف أولئك الأطفال أن تعليمهم مقيد بحواجز وضعها صناع السياسات لمنعهم من الولوج إلى حقول المعرفة الحقيقية.

رابعاً: الجدول المدرسي: يدرك التلاميذ الطبيعة الشاملة لوقت المدرسة، وقد عبَّروا عن هذا الإدراك ببعض الملاحظات والتعليقات الجوهرية على التنظيم الحالي لليوم والأسبوع المدرسي، فانتقدوا تحديداً طغيان وقت المدرسة على وقتهم الشخصي "نرغب في قضاء المزيد من الوقت مع عائلاتنا، وفي الخروج إلى العالم وتعلم المزيد من الأمور الجديدة"، و "كل شخص يحتاج إلى الراحة حتى المعلمين، كما يحتاج جميع التلاميذ مساحة من الوقت لرؤية أصدقائهم وأسرهم، لكن كيف يتسنى لهم هذا في ظل الفروض المدرسية اللانهائية المطلوبة منهم ؟".

في الواقع كانت هناك مشاعر كراهية شديدة متفشية بين التلاميذ تجاه طريقة تنظيم اليوم الدراسي، مع ذلك وبالتوازي مع هذه الكراهية، وضع العديد منهم لمدرسة المستقبل جداول زمنية تفصيلية ومزخرفة تشبه نماذج الجداول الحالية، من حيث طريقة التنظيم ومحتوى المواد، مع إضافة بعض التعديلات فحسب.

وقد طالب الأطفال في المسابقة أن يسمح لهم الجدول المدرسي بقضاء المزيد من الوقت في دراسة مادة من اختيارهم، وهذا يعني أن بإمكان التلاميذ تقديم أداء أفضل عند استذكار دروس تلك المادة لأنهم يرغبون في تعلمها.

وفي ظل اقتراحات الأطفال، قررت مجموعة محدودة من المدارس البريطانية أن تطبق نظام جدول الدراسة المرن، فكانت النتائج إيجابية على مستوى كل من التلاميذ والمعلمين، فعلى سبيل؛ خصصت مدرسة

"ليزاوس كوميونيتي كوليدج" يوم الجمعة لتطبيق تلك الفكرة، وبدلاً من التنظيم المعتاد لليوم المكون من تسع حصص مدرسية، يشترك الأطفال في نشاط واحد – الجغرافيا أو الرسم أو كرة السلة .. الخ – على مدار خمس ساعات تبدأ من الثامنة والنصف صباحًا، وفي فترة استراحة الغداء يتمتع الأطفال بحرية العودة إلى منازلهم. ووجدوا أن اليوم المرن هذا يؤثر بشكل إيجابي على تطور مهارات مهمة لدى التلاميذ، مثل: العمل الجماعي، وتحمل المسؤولية، والتفاوض، وحسن الإنصات، كما يوطد علاقاتهم بالمعلمين وأولياء الأمور وغيرهم من البشر.

عمومًا، هذه النتائج غيض من فيض، وهي جزء ما يمكن استيعابه خلال هذه الزاوية من هذه الصفحة، ومن الطبيعي أنه لا يمكن تنفيذ كل ما ورد في الدراسة في مدارس العالم، فالمجتمعات والبيئات تختلف، ولكن يبقى السؤال الذي يرد في خاطري قائم؛ ترى ماذا يمكن أن يقول أطفالنا وتلاميذنا لو أتيحت لهم الفرصة ليتكلموا ويعبروا أن رأيهم في المدراس التي يريدونها في المستقبل ؟ حقيقة لا أعرف الإجابة.